المقتطف

الجزء السابع من السنة الثانية والعشرين

١ يوليو (تموز) سنة ١٨٩٨ — الموافق ١٢ صفر سنة ١٣١٦

غلادستون

في سيرة غلادستون امور ليس من موضوع المقتطف البحث عنها وفيها امور أُخرى من اخصّ ما يذكر في الجرائد العلمية ولا سيما اذا كانت تبحث في علم الاخلاق وارتقاء العقول وتواريخ الامم. ولا يعذر المقتطف اذا اغضى عن هذا الرجل العظيم وقد كان بالامس يسارع الى نشر آرائهِ العلمية ومقالاتهِ الادبية. ولا نحسب اننا نوفيهِ حقَّهُ في الصفحات القليلة التي خصصناها الآن لترجمتهِ ولكن ما لا يدرك كلهُ لا يترك كلهُ

ولد بمدينة ليفربول احدى المدن التجارية العظيمة في التاسع والعشرين من دسمبر سنة ١٨٠٩ وهو من عائلة اسكتلندية قديمة اصل اسمها غلادستاين اي صخور الباشق وكان ابوهُ وجدهُ من كبار التجار فورث عنهما ثروةً طائلة سهَّلت عليهِ التفرُّغ للسياسة كما ورث منهما التدقيق المالي الذي جعلهُ اعظم وزراء المالية ومستثمري ثروة البلاد. وكان لهُ ثلاثة اخوة اكبر منهُ وكان ابوهم يسرُّ بتمرينهم على البحث وترويضهم في الجدال والمناظرة. روى بعضهم ان اخاهُ توماس سبَّك ذات يوم زنبورًا واراد قتلهُ فسألهم ابوهم عما اذا كان الزنبور يستحق القتل فاحتدمت نار الجدال بين الاخوة واخيرًا قرَّ قرارهم على انهُ يستحق القتل لانهُ عدو للجمهور لكن الزنبور افلت من يدهم وهم يتجادلون

وكان هو واخوتهُ يتمرنون على رمي السهام للتسلية وكان ابوهم يأمرهم ان لا يضيعوا سهمًا منها بل يجمعوها كلها من حول الغرض اصابتهُ او لم تصبهُ. واتفق مرةً ان اضاعوا سهمًا منها فاقاموا يفتشون عنهُ الى ان حلك الظلام ثم قام غلادستون صاحب الترجمة في الصباح وخرج الى الحقل يفتش عن السهم الضائع وظلَّ ساعتين يفتش عنهُ الى ان وجدهُ. ورآهُ احد

احد قائد وهو يفتش ويتقب فقال له لقد اضعت من الوقت ما لا يستحقه هذا السهم فقال غلادستون اضعت ولم أضع فاني كنت واثقاً اني اجده لو فتشت عنه بالتدقيق ولم اجده اولاً لانني لم ادقق في البحث عنه فلم دققت وجدته. وبمثل ذلك كان ذهنه يشحذ وقواه تتمرن من نعومة اظفاره

وكان ابوه محافظاً من حزب المحافظين الذين يكرهون كل تغيير في سياسة البلاد ويحسبونه بلية كبيرة الضرر وكان متشيعاً للوزير كنن زعيم المحافظين ومعجباً به اشد الاعجاب. وأُرسل الى مدرسة إتن احدى المدارس الشهيرة في بلاد الانكليز فاكبَّ على الدرس وكان شديد التدين نحياً للجدل حرَّر جريدة وهو في المدرسة فبحث في كثير من المسائل العمومية واشتهر بقوة المعارضة في الخطابة. وكتب مقالة في الفصاحة قال فيها ان طالبي المعالي تبهر المناصب عيونهم فيطمعون بمنصب عند ناظر او بالنظارة نفسها او برئاسة الوزراء. كأنه انبأ بما ستأول اليه حاله. وقد قال عنه الذين شاهدوه في ذلك الحين انه سيكون له شأن عظيم في مستقبل الايام

واتمَّ دروسه في مدرسة إتن سنة ١٨٢٧ وانتقل منها الى مدرسة اكسفرد الجامعة وكان مثالاً في الادب والرزانة والمواظبة على الدرس. ومن اترابه فيها شبان بلغوا بعدئذٍ المقام الاسنى بين اهل العلم والتقوى فاشتهر بينهم بدقة النظر وقوة الجدل وبلاغة الانشاء وكانت الخطابة فطرية فيه فساق فيها من غير تكلف لكنه كان يميل الى تنميق العبارة وتفخيمها ولو قلَّ معناها وبقي هذا شأنه من تفخيم العبارات وتطويلها وحشد الجمل المعترضة فيها حتى الخريات ايامه. وينسب هذا النوع من الانشاء اليه فيقال جملة غلادستونية اذا كانت طويلة مفعمة بالمعاني

وللطلبة في مدرسة اكسفرد شأن في سياسة البلاد الانكليزية فينتخبون عضواً لمجلس النواب ويصوّبون سياسة الحكومة او يخطئونها في خطبهم ومحاوراتهم فكان من المخطئين لطالبي التغيير في نظام الحكومة المقصود به اشراك اليهود في بعض الحقوق الوطنية زعماً منه ان ذلك يزعزع نظام الهيئة الاجتماعية

واتمَّ دروسه في اكسفرد سنة ١٨٣٢ وخرج منها ممتازاً بعلمه وادبه وحسن تدينه ومقالاته في آراء المحافظين

وترك اكسفرد سنة ١٨٣٣ وذهب الى ايطاليا واقام فيها ستة اشهر ترويحاً للنفس وسعياً في تطبيق العلم على العالم وكانت شهرته وهو في المدرسة قد بلغت دوق نيوكسل احد امراء

الانكليز بواسطة ابنه لورد لكلن وكان هذا من تراب غلادستون في المدرسة فاستدعاه الدوق من ايطاليا وسعى في جعل اهالي نيوارك ينتخبونه عضواً لمجلس النواب . فكتب خطبة بليغة نشرها على المنتخبين عمّا آراءه في وجوب المحافظة على النظام الحاضر والابتعاد عن كل بدعة ولاسيما عمّا يفصل الكنيسة عن الحكومة وقال فيها بوجوب الاهتمام بشأن الفقراء والصنّاع حتى ينالوا نصيبهم من خيرات البلاد وبانهُ لا بدّ من عتق العبيد ولكن تدريجاً

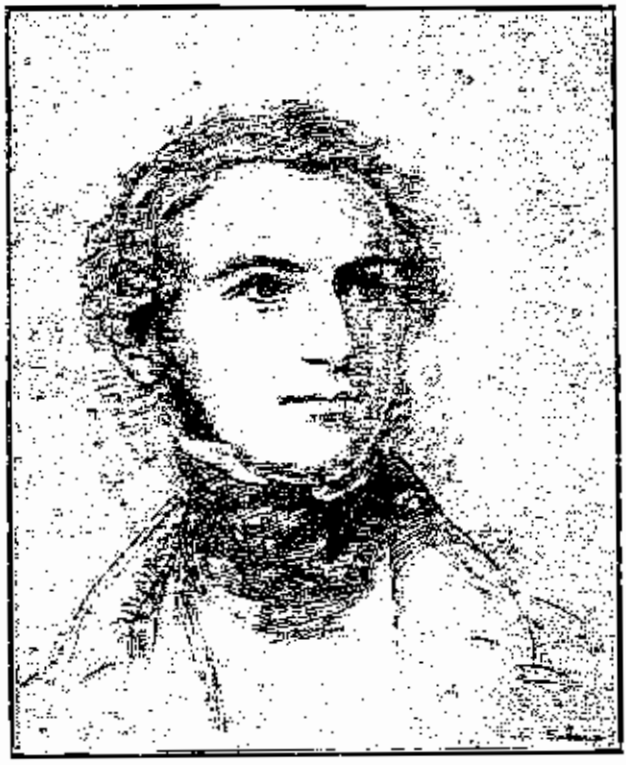

غلادستون في شبيبته

لا دفعةً واحدةً . وكان لهُ ندّان قويّان في هذا الانتخاب احدهما حرٌّ والآخر محافظ فنال الاكثرية عليهما وكان في الثانية والعشرين من عمره

وكانت الوزارة حينئذٍ في يد الاحرار فتلا خطبتهُ الاولى في مجلس النواب في الثالث من يونيو سنة ١٨٣٣ في تحرير العبيد وقال ان الحكومة حوّلت الناس حق امتلاك العبيد وفي قدرة ان تحرمهم من هذا الحق ولكن يجب عليها حينئذٍ ان تعوضهم عمّا يخسرونهُ بهذا

الحرمان. وكأنهُ كان يسعى في مصلحة ابيهِ لانهُ كان يقتني جمًّا غفيرًا من العبيد في املاكهِ. وعارض الاحرار في كل المطالب التي عزَّزها بعد ان اختار اليهم وصار زعيمًا لهم لان مبدأهُ كان كراهة التغيير مهما كانت نتائجهُ حاسبًا ان البقاء على القديم احسن في الحال والمآل

وسقطت وزارة الاحرار سريعًا والَّف السر روبرت بيل زعيم المحافظين وزارة جديدة فجعلهُ رئيسًا ثانيًا للخزينة ثم جُعل وكيلاً لنظارة المستعمرات. ثم سقطت وزارة بيل فعاد غلادستون عضوًا بسيطًا في مجلس النواب

وكان كثير الدرس والمطالعة ولا سيما في الكتب الادبية والدينية والَّف كتابًا موضوعهُ علاقة الحكومة بالكنيسة. وكان في البلاد الانكليزية رجل من اشهر كتَّاب العصر ان لم نقل انهُ كان اشهرهم كلهم وهو اللورد ماكولي وكان قد رأى غلادستون في رومية وسرَّهُ ما فيهِ من الذكاء فقرأ هذا الكتاب وانتقدهُ انتقادًا مرًّا وخطَّأهُ في آرائهِ ومطالبهِ. وكان غلادستون قد ادَّعى ان الحكومة تعمل وتُسأل عما تعمل مثل كل فرد من افراد رعاياها فيجب ان تكون لها ديانة مثلهُ تعتصم عن الزلل. فقال ماكولي انما يطلب من الحكومة تأمين رعاياها على دينهم ومالهم ولا يُطلب منها ان تميز بين مذهب وآخر من مذاهب اتباعها. وعاد غلادستون الى آراء ماكولي لما القيت اليهِ مقاليد الحكومة الاَّ ان هذا الانتقاد لم يقرَّ بهِ بل زاد شهرتهُ لموقع المنتقد من نفوس الامة ولمساس الموضوع بمصالحها

والتقى غلادستون بابنة السر مستفن رتشرد غلين في رومية فاحبها وخطبها واقترن بها سنة ١٨٣٩ فاقامت معهُ ستين سنة تشاركهُ في السراء والضراء وتعتني بصحتهِ اعتناء الوالدة بابنها وترافقهُ وهو يسعى في الاعمال العمومية وقلَّما يتهُ البهجةُ وحبورًا. وقصرهُ في هواردن تتصل اليهِ منهُ ورثتهُ عن ابيها واضافت ثروتها الطائلة الى ثروتهِ تسهيلاً لنجاحهِ في مطالبهِ وتفاديًا من اضاعة وقتهِ الثمين في طلب المعاش

ولما انتظم في سلك رجال السياسة فعلاً كان الفقر ضاربًا اطنابهُ في البلاد الانكليزية والجنايات على اكثرها والشكوى من المظالم والمغارم عامَّة. وكانت الضرائب فادحة وثمن الحنطة فاحشًا فسعى سعيًا مشكورًا في ابطال المكوس عن ٧٥٠ نوعًا من الانواع التي تجبى المكوس عنها وتكلم في صدد ذلك مئة مرة في مجلس النواب. وعينهُ الوزير بيل رئيسًا لديوان التجارة سنة ١٨٤٣ فالتجهت اليهِ انظار الامة وقدَّرت انهُ سيكون كبير وزرائها

واهتمَّ بكل ما يعود على العامة بالنفع فجعل شركات سكك الحديد تخفض الاجور لهم وتنقل الاولاد مجانًا وزاد اهتمامهُ بهم وبُعدهُ من الخاصة الذين كانوا يستأثرون بمنافع ليست

لم يستقل اضطرارًا بترك منصبهُ في الحكومة من تلقاء نفسهِ لكي لا يكون سببًا في حرج الدفع اليهم على غير استحقاق. فلم عليهِ فريق منهم وسعوا في منع انتخابهِ مجلس النواب لكن مدرسة أكسفرد اختتت بمرور حياتهِ وانتخبتهُ نائبًا عنها. وكانت الانباء الجمهورية قد اشتدَّت فيهِ فوافق على دخول مجلس النواب وبذل جهدهُ في اطلاق حرية التجارة ورفع الرسوم عن البضائع الواردة الى البلاد وكانت بلاغة خطبهِ ومحاورته تجتذب الاسماع فحسب الخافقون ان شأنهُ سيعلو على شأن دزرائيلي في حزبهم. وعُين دزرائيلي ناظرًا للمالية وزاد ان يجعل

غلادستون مخطب وبيع الجمهور سنة ١٨٧٦. وكتاب الجرائد تكتب كلمة

غلادستون وكيلاً عنهُ ليبيع بالدراهم لذلك فلم يقبل منهُ ذلك لانهُ لم يكن يختصهُ فلم عرض دزرائيلي على الملكة سنة ١٨٥٢ وثب عليهِ غلادستون وثبة الاسد الضاري وبيَّن ما فيها من الخطل والخلط وشرهُ تشهيرًا فاضطرت وزارة دسطرت وزارة استعفى وحلفتهُ وزارة ورد يردين وجُعل غلادستون ناظرًا للمالية ولكن المحافظين كانوا قد توسموا فيهِ خيرًا من حزبهِ الى حزب الاحرار فلم يركنوا اليهِ

واتفق انهُ زار فايلي في تلك الاثناء ورأى ما ساءهُ من حالة محجونها وشدَّة الجور فيها على المأخوذين بجرائم سياسية فكتب في ذلك كتابين الى لورد ايوردين شدَّد فيهما النكير على حكومة صقلية بعد ان وصف مساوئها وصفاً تتشعرُّ منهُ الابدان فكان ذلك من اكبر الاسباب التي سهلت قلبها بعد عشر سنوات وانشاء المملكة الايطالية

ووضع الميزانية سنة ١٨٥٣ وتلاها على مجلس النواب فاستغرقت تلاوتها خمس ساعات فاصغى اليها الاعضاء اصغاء تامًّا مع ما فيها من الارقام والتدقيقات الحسابية وشهد لهُ الجميع حتى الخصوم انهُ بلغ غاية التدقيق والتدبير في وضعها واحكامها حتى تخفف وطأة الضرائب والمكوس عن الجمهور وتزيد على اهل السعة والمقتصد النفقات التي لا داعي لها. وكتبت الملكة لزوجها يمدحانهِ ويشكرانهِ على ذلك. فخفف الضرائب اكثر من خمسة ملايين من الجنيهات وعوَّض من ذلك بضريبة على الدخل السنوي اذا زاد على مئة جنيه كأنهُ الزم الاغنياء ان يساعدوا الفقراء بنوع عام. وكانت خطبهُ في الميزانية غاية في البلاغة حتى كان الاعضاء يتوقعونها كأنهم يتوقعون سماع اطرب المغنين في ابدع فصول الطرب مع ان تلاوتها كانت تستغرق بضع ساعات

ولما نشبت حرب القرم لم يكن من الراغبين فيها خلافاً لجمهور الامة فضعف شأنهُ في اول الامر بسبب ذلك. وأُرسل الى جزائر اليونان سنة ١٨٥٨ وكانت في قلق وهياج مستمر طالبة الانضمام الى بلاد اليونان فلم يشر بضمها اليها لكنها ضمت بعدئذٍ حينما مُلِّك عليها ابن ملك الدنمرك سنة ١٨٦٣

وأُعيد الى المالية سنة ١٨٥٩ في وزارة بامرستون فوضع الميزانية لسنة ١٨٦٠ والغى منها الضريبة التي كانت تؤخذ على الورق الوارد الى البلاد من الخارج لانها بثابة ضريبة على نشر العلوم والمعارف فلم يصادق مجلس الاعيان على ذلك فاشتدَّ حنقهُ من الاعيان ومالَ بكليتهِ الى حزب الاحرار واصرَّ على المجري بموجب ميزانيتهِ قائلاً إما انا وإما الاعيان فاضطرَّ الاعيان في السنة التالية ان يتبلغوا بالغاء الضريبة عن الورق. ونجحت البلاد بادارتهِ المالية نجاحاً يفوق التصديق فاوفت ٦٩ مليون جنيه من دينها في تسع سنوات

وتوفي بامرستون سنة ١٨٦٥ فصار اللورد رسل رئيساً للنظار وغلادستون رئيساً لمجلس النواب وكان ينوي توسيع نطاق الانتخاب فوافقهُ اللورد رسل على ذلك وقُدِّمت اللائحة الى مجلس النواب فرفضها عند قراءتها الاول وكان غلادستون قد صار من الاحرار فقرَّعهُ دزرائيلي على ذلك وهو يناضلهُ فاجابهُ "في اشهر نسبي كما شهَّرني حضرة العضو المحترم فاني

ربيت في فن كنن العظيم زعيم المحافظين ، وكانت مبادئه السياسية متسلطة عليّ في صباي وشبيبتي فكنت اسرُّ بسياسته الداخلية والخارجية وما سعى اليه من توسع نطاق التجارة وربط عراها بين الامم بعهد ابي بكنن وبذلك الاسم العظيم وبسم رجل آخر افضل منه وهو اسم بِرْك قُتلت في حداثتي كما قُتِل العضو المحترم (دزرائيلي) بهب في كهولته". وسقطت الوزارة بعد قتيل لكن اسم غلادستون كان قد شاع في البلاد كلها كنصير للعامة ضد الخاصة فاضل الوزارة الجديدة وناقشها الحساب ولا سيما خصمه الالد دزرائيلي فقهرها واضطرها الى الاستعفاء

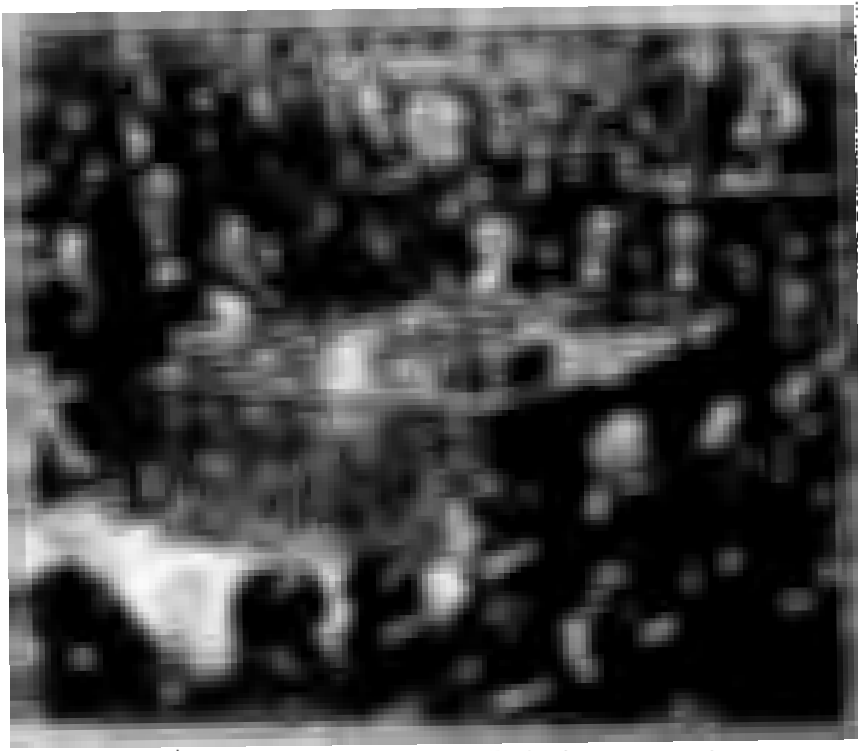

غلادستون يخطب في مجلس النواب وقد عرض لائحة استقلال ارلندا سنة ١٨٨٦

واعيدت الانتخابات ففاز حزبه وجُعل رئيساً للوزراء وذلك سنة ١٨٦٨ واقام في هذا المنصب الى سنة ١٨٧٤ وكانت سنوات نجاح وفلاح في البلاد الانكليزية لوضع قانون التعليم العمومي فيها واصلح قانون الانتخاب ونظام الجندية

واعيد الانتخاب سنة ١٨٧٤ فكانت الاكثرية للمحافظين وترئس دزرائيلي ليدست الوزارة وتفرغ غلادستون للدرس والتاليف وعينه لا تعقل عن مجلس النواب الى ان اثار البلاد

ضد الوزارة وسقطها سنة ١٨٨٥ وأُعيدت الانتخابات فكانت الأكثرية من حزب الاحرار فأُعيد الى الوزارة وتربَّع فيها الى سنة ١٨٨٥ . وما بقي من تاريخه معروف لدى القراء فانهُ اعيد الى الوزارة سنة ١٨٨٦ فوضع لائحة الاستقلال الاداري لارلند فلم يقبل بها مجلس النواب واشتق اعضاء حزبهِ وذهب فريق منهم ضدهُ فطلب اعادة الانتخابات فكانت الاكثرية من حزب المحافظين. ثم اعيد الى الوزارة اخيراً سنة ١٨٩٢ فبقي الى فبراير سنة ١٨٩٤ واستعفى لمرض اصاب عينيهِ وسلم مقاليد الرئاسة لمورد روزبري كما لا يخفى

هذه خلاصة سيرتهِ السياسية . وجزء فيها غاية الايجاز لانها ليست مقصودة بالذات . ونأتي الآن الى وصف اخلاقهِ على ما يراها محبوهُ ومبغضوهُ الذين لم يعمهم الغرض عن رؤية حسناته او سيآته فقد اتفق هؤلاء على انهُ فاق ابناء عصرهِ في اختلاب عقول الناس فكان في حداثتهِ احبَّ اترابهِ كلهم خَلْقاً وخلقاً ويقال انهُ لم يدخل مدرسة اثن ولد اجمل منهُ منظراً وبقيت عليهِ ملامح الجمال الى ان طعن في السن كما ترى من الصورة الاخيرة المذكورة في هذه المقالة وهي منقولة عن آخر صورة فوتوغرافية صوِّرت لهُ قبل وفاتهِ . وجمال خُلُقهِ لم يكن اقل من جمال خَلْقهِ . وكان كرم الاخلاق فطرياً فيهِ يأتيهِ من غير تكلُّف ويبدو منهُ نحو الجميع على حدٍّ سوى من الملكة الى احقر الناس. وهو الذي حملهُ على مكاتبة جميع الذين كاتبوهُ من كل الطبقات فلم يكن يأنف من اجابة احد على كتاب بعث بهِ اليهِ مهما كانت منزلتهُ وضيعة . وكان حاد الطبع جداً ولكن كرم اخلاقهِ غلب حدَّة طبعهِ فلم يخرج بهِ عن حدّ الاعتدال في مناضلة خصومهِ . وكانت امارات الغضب تبدو على وجههِ اذا أُغضب فتبرق عيناهُ وتحمرُّ وجناهُ وينتفخ وداجاهُ ولكنهُ لا ينطق بكلمة تغيظ خصومهُ غير ما يجري بهِ قلمهُ لو كان كاتباً مترسلاً

اما الخطابة فكان ابن بجدتها وفارس حومتها وقد استخدمها في اثارة الامة الانكليزية للاخذ بناصر حزبهِ كما استخدمها في مجلس النوَّاب لاثبات آرائهِ واقناع خصومهِ . تراهُ في الصورة الثانية يخطب على الوف من الناس وكتَّاب الجرائد يتقفون كل كلة ينوه بها ولي الصورة الثالثة يمر لائحة الاستقلال الاداري لارلند . وقد اخترنا هاتين الصورتين لان الاولى تمثل المشاهد التي يجتمع فيها النواب للخطابة وقت اثارة الامة والثانية ترى ما في داخل مجلس النواب. وقد فاقهُ المستر برنيل في فصاحة العبارة وحسن الالقاء ولكنهُ لم يبلغ مبلغهُ في مناضلة الخصوم في الكر والفر الخطابيين فانهُ كان غزير المادة الى حد يفوق التصوُّر بارعاً في اساليب الجدل والقبض على الخصوم وتضييق المذاهب عليهم ورشقهم بالحجة بعد الحجة

والدليل بعد الدليل وستبطل الافيسة في الحضرة من حيث لا يدرون حتى يقتلهم او يقعدهم. وفاقهُ دزرائيلي (لورد بكنسفيلد) في بلاغة عبارته وتنميقها ولكنت ابديعية وحسن ادارته للناس ولكن المناظرات التي فاز فيها غلادستون على خصومه في مجلس النواب كثر كثيراً من المناظرات التي فاز فيها دزرائيلي . فدخل المجلس كالبطل الجبار وظلَّ يعارك ويناضل ستين سنة وهو اما صديق محبوب او خصم مرهوب ومقامهُ هو هو في الخالدين مقام البطل الباسل الذي يُحمى جانبهُ ويرجى خيرهُ

آخر صورة فوتوغرافية صوِّر بها غلادستون في مارس سنة ١٨٩٨

وكان صوتهُ رنَّانًا مطربًا واشاراتهُ كثيرة لطيفة فتحرك يداهُ مع لسانهِ كانهما تأخذان الكلام من فيهِ وتعطيانهِ للسامعين انصارًا كانوا او خصومًا . وكان يقف على عقبيهِ وهو يخطب ويدور بتؤدة او يسرة اذا اراد ان يخص بكلامهِ فريقًا من الحضور . ويُذكَر عنهُ انهُ كان يضرب

يندر ضررٌ عنيفًا على ما امامهُ مائدةٌ او منبرٌ. فوقف دزرائيلي مرةً وقال اني اشكر الله لان بيني وبين الخطيب مائدة متينة الدوائم

وشهرة غلادستون العلميَّة لا توازي شهرتهُ السياسيَّة والخطابيَّة لان هذه احتلَّتهُ ارفع محل احتلَّهُ احد قبلهُ واما شهرتهُ العلميَّة فدونها كثيرًا ولو قدر من فاقهُ فيها. ومن كتبهِ الكثيرة دروس من هوميروس وعصرهِ في ثلاثة مجلدات والموافقات الهوميرية. ومقتطفات من السنين الماضية في سبعة مجلدات. وكتب اكثر من ستين مقالة في مجلة القرن التاسع عشر من سنة ١٨٧٧ الى سنة ١٨٩٦ وقد رأينا في غير مكان ان مدير تلك المجلة كان يدفع اليهِ مئتي جنيه على كل مقالة. واكثر هذه المقالات سياسي ولكن بعضها علمي تاريخي او طبيعي جدلي ومنها المناظرة بينهُ وبين الاستاذ هكسلي وقد حاول فيها ان يتغلَّب على هكسلي بالادلة الجدلية والنظريات المتعلقة بما وراء الطبيعة فجاوبهُ هكسلي قاصدًا اقناعهُ لا افحامهُ فكان يسرد لهُ القضايا الطبيعية كما يسردها الاستاذ لتلامذتهِ. والرجلان فرسا رهان في بلاغة الانشاء واخلاص النية وصدق الطوية لكن غلادستون كان غير مطلع على ما تقرَّر حديثًا في العلوم الطبيعية فسر عليهِ الجري مع هكسلي في هذا المضمار

قال المستر نولس محرر مجلة القرن التاسع عشر "كان غلادستون مثالاً في مكاتبة المجلات اذا وعد بمقالة انجز وعدهُ مهما كانت شاغلهُ. وكان القراء يتوقعون كل كلمة من قلمهِ كما يتوقع العطاش بارد الماء. وهو مع ذلك على غاية الدعة والانضاع في تقديم ما يكتبهُ الى محرر الجريدة كأنهُ يستحي بهِ فيقبل كل مشورة يشير بها المحرر وكل انتقاد يبديهِ بالشكر والسرور. ولا شيء اغرب من ذلك في مَن فاق اقرانهُ مثلهُ. وكثيرًا ما كنتُ اذاكرهُ في ما يُقترح عليهِ كتابتهُ من المقالات فيحدثني في ذلك حديثًا اطلى من الزلال حديثًا نوفاه بهِ في مجلس النواب لاقام البلاد واقعدها. ومهما قلت في وصف تلك الاحاديث لا ابالغ فيها. وكان اذا تناول موضوعًا خاض فيهِ بكليتهِ وفتن بهِ عقل سامعيهِ حتى لتعذَّر تفهيم معارضتهُ لكنهُ كان يجلُّ معارضهُ ويقدر المعارضة قدرها وقد بالغ في ذلك حتى يخشى المعارض او المنتقد من ان يتان منهُ اكثر مما يحق لهُ. ولم يكن يبتُّ حكمًا في مسألة الا بعد ان يقلبها من كل وجوهها وينظر في كل ملابساتها وفي كل الادلة المتعلقة بها. وكان يقول انهُ يجب ان لا تكتم شهادة ولا يغضَّ عن امر لهُ مساس بالموضوع مهما كان. واذا سمعتهُ يتكلم ويسرد الادلة ويقيم البراهين اضطررت ان تجري معهُ مكرهًا او مختارًا كأنهُ يسحرك سحرًا

قال لي رجل من العظماء مرةً وهو من اكبر خصومه في السياسة اني كنت الآن اتفدى مع غلادستون وأؤكد لك ان في الرجل مغنطيساً يجذب القلوب فلو قال لي ان اخرج الى السوق واقف على راسي لفعلت

وهذه الدعة الفطرية كانت تُبدَّل بالعتو والاستبداد حينما يقف في منصب السياسة فيصير يعتقد العصمة في نفسه. فاذا التفت الى موضوع وامعن نظرهُ فيه وقلَّبهُ من كل وجوهه واعتقد انهُ حق واجب اقرَّ عليه ولم يعد شيءٌ يثنيه عنه كأنهُ يعتقد ان الله اقامهُ لاجرائه. ولم يكن هذان الخلقان اي الدعة والعتو يتناوبانه بل كانا فيه معاً فيقاوم خصومهُ في السياسة اشد مقاومة ويكرمهم ويجلهم اذا زارهم او زاروهُ ولا يحتقر اراءهم ولا يشنؤهم لتمسكهم بها

وبقيت عواطف النبوَّة وبهجة الشباب في نفسه الى آخر ايامه وهي من اخص اوصافه واطيب مناقبه" انتهى

وكان قوي البنية لا يتعبهُ شغل ولا ينهكهُ عمل محباً للفكاهة والطرب وكان للموسيقى سلطة شديدة على نفسه وبقي يجد اللذة فيها الى آخر ايامه وكان مغرماً بزرع الحراج والاعتناء بها وقطع الاشجار منها وكان ايضاً شديد اليدين يذهب الى الكنيسة ماشياً كل صباح وهو في قصر هواردن في الصيف والشتاء والحر والبرد والمطر والصحو

وتولاهُ الضعف والالم العصبي في أخريات ايامه الى ان فاضت روحهُ صباح التاسع عشر من شهر مايو الماضي في قصره بهواردن. فانعقد مجلس النواب جلستهُ حداداً عليه واقرَّ المجلسان على ان يُحتفل بجنازته احتفالاً عمومياً على نفقة الحكومة وان يدفن في دير وستمنستر مدفن ملوك الانكليز وعظمائهم ويقام لهُ تذكار فيه وتدفن زوجتهُ معهُ بعد وفاتها. ووردت رسائل التعزية على ابنه وزوجته من ملوك الارض وعظمائها. وأبَّنهُ رؤساء الاحزاب في المجلسين تأبيناً لم يؤبَّن به وزير قبله. فلما اجتمع مجلس الاعيان في العشرين من الشهر نهض لورد سلسبري زعيم المحافظين ورئيس الوزارة الحاضرة وقال ما ترجمتهُ:

ايها السادة. ارى انهُ من الواجب علينا قبل الشروع في قضاء الاعمال ان نلتفت الى الرزية العظيمة التي حلَّت بنا فان اعظم رجل بين رجال السياسة في هذا القرن قد أُخذ منا. ويحسن بنا جرياً على ما اعتدناهُ في مثل هذه النازلة المفجعة واتباعاً لما يشعر به اعضاء هذا المجلس علي ما انا موقن ان نرفع الى الملكة عريضة نشارك فيها مجلس النواب في الرجاء من جلالتها لكن تأمر بان يحتفل بجنازة الفقيد اعظم احتفال ممكن ولذلك اطلب" ان نتقدم الى جلالتها عريضة نتوسل بها اليها لكي تتنازل وتأمر بان رفات الشريف وليم اورت غلادستون

يدفن على نفقة الحكومة وتقام له تذكار في كنيسة مار بطرس بوستمنستر يكتب عليه ما يعبر عن إعجاب الامة به وحبها له وتقديرها مواهبه النادرة الفائقة وخدمته المخلصة في البارلمنت وفي مناصب الحكومة حتى قدرها وان هذا المجلس يشاركه في تنفيذ امرها "

ايها السادة لا داعي الى حثكم على قبول هذا الطلب ولا حاجة الى اطالة الكلام في وصف الرجل الذي فقدناه امس فان تاريخه وفضائله وسلطته العجيبة قد افاضت في وصفها الالسنة والاقلام ولا داعي لاعادة ذلك الآن ولكن الامر الذي يظهر لي من احرى الامور بالنظر والذي يستدعي التفات الامم الغربية اكثر من غيره هو اتفاق جميع الناس من كل الطبقات ومن كل المذاهب على تكريم الرجل الذي اشتبك في المناضلات السياسية اكثر من كل رجل في جيله. وقد ثبت خصومات الماضي فلم يبق بيننا اختلاف في ما نشعر به مما يجب علينا من الاكرام لرجل السياسة العظيم او ما يجب ان يكرم به علانية على مرأى من العالم كله. وما السبب لهذا الشعور الذي يشترك فيه الجميع . لا شبهة في انه كان للفقيد صفات تميزه على سائر الناس وقد تقولون ان هذه الصفات هي سمو عقله والقوة العجيبة التي كانت فيه لاجتذاب الناس اليه والسلطة العظيمة التي كانت له على عقول معاصريه ولكن هذه الاشياء تؤثر في المتاركين له في الآراء فيعلل بها انجذابهم اليه وإعجابهم به ولكن لا يعلل بها ما يشعر به المخالفون له في الآراء من الإكرام والإجلال والإعجاب ولا اظن ان سبب ذلك بعيد عما يشعر به جمهور الناس فان الجميع رأوا فيه رجلاً يتوخى اشرف الغايات واسماها في كل اعماله سواء كان مصيباً في ما يحركه الى العمل او مخطئاً . ثم انه كان يقصد دائماً اشرف المقاصد ولا يكون ذلك الا في من بلغت مطالب نفسه الادبية اعظمها واطهرها . وقد اكرمه ابناء امته لانهم رأوا فيه هذه المزية راسخة مدة خدمته الطويلة مع ما مر عليه من تغير الشؤون واختلاف الاحوال. وسيبقى للذين اقتفوا تاريخ حياته ولاسيما في الاشهر الاخيرة من عمره ذكر مجيد ذكر الرجل العظيم السياسي التقي النبيه اوسافه واميالة ومقاصده كانت تؤثر في الحكومة كلها . وسيبقى في سياسة العصر الذي عاش فيه تأثيراً عظيماً منفعاً بالفائدة. ويدوم ذكره مثالاً عظيماً كرجل تقي مسيحي اعظم قل ان يوجد له نظير في تاريخ البشر

ثم وقف لورد كمبرلي زعيم الاحرار وقال اني اجد صعوبة عظيمة في الكلام بعد حضرة المركيز (لورد سلسبري) لاني لا اتصور انه يمكن ان يقال شيء افضل مما قاله او اوقع منه في هذا المقام او اشد منه تأثيراً في النفوس. ولا شبهة في انه اصاب الغرض في ما ذكره

عن الشعور الذي اشترك فيهِ الجميع لفقد رجل السياسة الذي فقدناهُ. واوافق حضرة المركيز الشريف على انهُ مهما كان رأينا نحن الجلوس على هذا الجانب (الاحرار) في سياسة الفقيد — وبالطبع كنا موافقين لها اكثر من السادة الجلوس امامنا (اي المحافظين) — مهما كان رأينا فيها نحن نعلم كما يعلم حضرتهُ ان ما نراهُ من مظاهر الحزن الوطني — واظن انهُ لم يحدث شيء يضارع ذلك في هذه البلاد — لم يكن سببهُ مزايا الفقيد السياسية المجيدة — اي بلاغتهُ وادارتهُ للوزارات والمقام السامي الذي احتلهُ زمانًا طويلاً في مجالس المملكة. ونحن نعلم كما يعلم حضرة المركيز ان ذلك ليس السبب لهذا الاظهار العظيم للاسف بل انما سببهُ كما قال المركيز تقدير الفقيد قدرهُ من حيث مزاياهُ الادبية وسمو اخلاقهِ واستقامتها وشعور الامة انها بفقدهِ فقدت رجلاً كان قدوةً لكل من يشغل منصبًا ساميًا من مناصب الحكومة ولكل واحد من ابناء البلاد رفيعًا كان او وضيعًا — قدوةً للعيشة الطاهرة الزكية النبيلة في مقاصدها النبيلة في سلوكها — العيشة التي اوافق حضرة المركيز على انها ستكون قدوةً عظيمة للامة كلها — كما انها فقدت بهِ رجلاً سياسيًا قوي السلطة واسع السمعة

ولا اقدر ان ازيد على ذلك وليس بي حاجة الى وصف ما اشعر بهِ في هذه الحال فاني الشخص الوحيد الذي بقي حيًا من الذين انتظموا في كل الوزارات التي رأسها الفقيد ولكن ليس هذا المقام للاطالة في هذا الموضوع. وحسبي ان اقول اننا نحن الذين على هذه الجهة (جهة الاحرار) شاكرون لحضرة المركيز على ما ابداهُ ولا شبهة عندي في ان المجلس كلهُ يوافقهُ عليهِ

ثم وقف دوق ديفونشير ولورد روزبري وتكلما كلامًا يحرك الاشجان ولاسيما لورد روزبري فانهُ اطال الكلام وكلامهُ حقيق بان يترجم كلهُ ولا تحتملهُ الآن فنتركهُ الى فرصة أُخرى

وفي اليوم الموعود نُقلت جثة غلادستون الى كنيسة وستمنستر وعُرضت حتى رآها الالوف المؤلفة من الناس ثم سيروا بها الى المدفن في الثامن والعشرين من الشهر وسار امامها اعضاء مجلس النواب واعضاء مجلس الاعيان ونواب ملوك الارض وحمل بساط الرحمة امامها برنس اوف ويلس ولي عهد المملكة ودوق يورك وليّ عهدهِ ولورد سلسبري رئيس الوزارة الحاضرة ولورد روزبري رئيس الوزارة السابقة ونورد كمبرلي ولورد رندل ودوق رتلند والسر وليم هركورت والمستر بلفور والمستر ارمستد. اي وليًا عهد المملكة واكبر انصارهِ في الوزارة واكبر اضدادهِ فيها وابنا اصدقائهِ. ودفن بجانب كبار الوزراء الذين عرفهم او خلفهم وفاقهم كلهم في الفضائل والفواضل